يحيى بن خلدون : حياته و كتابه

الدكتور مزاحم علاوي
استاذ مساعد /قسم التاريخ
كلية التربية

حياته :

رغم ان يحيى بن محمد بن محمد بن الحسن بن خلدون المكنى بابي زكريا قد تردد ذكره لدى عدد من المؤرخين المعاصرين له من امثال ابن الخطيب (١). وابن الاحمر (٢) وبعضهم ممن جاء بعده كالمقرىء (٣). والتنسي (٤) الا اننا لانعلم الا النزر اليسير عن حياته .

فمن الراجح انه ولد في تونس حيث استقر والده وجده من قبل ، وعاش في ظل والده الذي امضى حياته بعيداً عن السياسة منصرفاً للدراسة العلم واعمال البر حتى وفاته سنة (٧٥٠هـ /١٣٤٩م) (٥).

(١) لسان الدين بن محمد بن عبدالله بن سعيد بن الخطيب . ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب تحقيق محمد عبدالله عنان ، ط ١ ، مكتبة الخانجي ، (القاهرة : ١٩٨١) ١٣٤/٢ .

(٢) ابو الوليد اسماعيل بن الاحمر ، مستودع العلاقة ومستبدع العلامة ، تحقيق محمد التركي ، ومحمد بن تاويت ، المركز الجامعي للبحث العلمي (تطوان)١٩٦٤ ص٦٥ .

(٣) شهاب الدين احمد بن محمد التلمساني المقري ، أزهار الرياض في اخبار غياض ، تحقيق محمد السقا وآخرون ، اللجنة المشتركة لنشر التراث الاسلامي - ، (الرباط : ١٩٧٨) ٢٤٦/١-٢٤٧ ، نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ، تحقيق احسان عباس ، دار صادر (بيروت ، ١٩٨٠) ٣٨٩/٦-٣٩٦ ١٣٣/٧-١٣٥) .

(٤) محمد بن عبدالله بن عبدالجليل التنسي ، نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان ، تحقيق محمود بوعياد ط١ ، المؤسسة الوطنية للكتاب (الجزائر : ١٩٨٥) ١١٠-١٢٨ ، ومن الغريب ان احمد بن القاضي قد تجاهل ذكره حتى في ترجمة اخيه مع العلم ان مؤلفه يوجب الترجمة له ، ينظر جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الاعلام مدينة فاس دار المنصور للطباعة (الرباط : ١٩٧٤) ٤١٠/٢ والمزيد عنه ينظر اسماعيل باشا البغدادي هدية العارفين واسماء المؤلفين والمصنفين ، ط٣ (طهران : ١٩٦٧) ٥٢٧/٢ .

(٥) الفردبل - ابن خلدون ، دائرة المعارف الاسلامية ، ترجمة محمد ثابت الفندي وآخرون ، م/١٥٢ ، احمد الاسكندري -ابن خلدون-مجلة المجتمع العلمي العربي ، حزيران (دمشق ١٩٢٩) م/٩ و٤٢١/٧-٤٣٣ ، ٤٦١/٨-٤٧١ .

اما تاريخ ولادته ، فان الغموض الذي يحيط بحياته قد انسحب على سنة ولادته غير ان الذين ذكروها ، حصروها بين سنتين (٧٣٣هـ – ٧٣٤هـ) (١٣٣٢ – ١٣٣٣م) . (٦)

ان حياة يحيى بن خلدون تكاد تكون مجهولة ، اذ لم يصلنا من اخبارها الا القليل ، ولولا ما ذكره عن نفسه ، وما ورد على لسان اخيه ، لاصبح من العسير علينا تتبع مسار حياته التي استغرقت زهاء نصف قرن على اية حال فإن الاجواء الثقافية والعلمية التي سادت تونس ابان العهد الحفصي في النصف الاول من القرن الثامن الهجري – الرابع عشر الميلادي (٧) قد صقلته واثرت ذاكرته بالعلوم المختلفة ، وان من المؤكد ان يحيى بن خلدون قد تتلمذ على هؤلاء الشيوخ الذين استقروا في تونس ابان ضمها للدولة المرينية في عهد السلطان ابي الحسن المريني سنة (٧٤٨هـ/١٣٤٧م) (٨) .

اذ كان من عادة السلطان المذكور اصطحاب علماء دولته البارزين في حله وترحاله ، وقد بين عبدالرحمن بن خلدون في رحلته اسماء العلماء الذين تتلمذ عليهم وذكر منهم عبدالله بن يوسف بن رضوان النجاري (ت ٧٨٣هـ/١٣٨١م) الذي اشتهر في علوم العربية والادب (٩) . وابا عبدالله محمد بن النجار (ت٧٥٠هـ/١٣٤٩م) وهو من اهل تلمسان وكان اماماً في علم النجامة واحكامها (١٠)

(٦) قارن بهذا الصدد بين يحيى بن خلدون ، دائرة المعارف : م١/١٥٥ خير الدين الزركلي – الاعلام (٣ بيروت : ١٩٦٩) ٢١١/٩ ، عمر رضا كحالة ، معجم المؤلفين (دمشق : ١٩٥٧ ٢٢٨/١٣ .

(٧) عبدالرحمن بن خلدون – العبر وديوان المبتدأ والخبر ، مؤسسة الاعلمي (بيروت : ١٩٥٩) ٤١٨/٧ .

(٨) دخلت تونس تحت طاعة المرينيين في زمن السلطان علي بن عثمان المكنى بابي الحسن سنة (٧٤٨هـ/١٣٤٧م) للمزيد انظر احمد بن حسين بن قنفذ – الفارسية في مبادىء الدولة الحفصية تحقيق محمد الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركي ، الدار التونسية للنشر (تونس : ١٩٦٨) ١٦٩–١٧٠ وابو عبدالله محمد الزركشي – تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ، تحقيق محمد ماضور ، ط٢ (تونس : ١٩٦٦) ٨١–٨٢ .

(٩) عبدالرحمن بن خلدون – التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً ، نشر دار الكتاب اللبناني (بيروت : ١٩٧٩) ٤٢ ؛ «الرحلة»

(١٠) الرحلة : ٤٨

والخطيب ابن مرزوق التلمساني (٧٨١هـ/١٣٧٩م) (١١) ومحمد بن عبدالله إبن عبدالنور (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م) وكان مشتهراً في علوم الفقه ، والفقيه محمد بن الصباغ (مات غريقاً سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٨م) (١٢) وقال عنه انه «كان مبرزاً في المنقول والمعقول وعارفاً بالحديث ورجاله واماماً في معرفة كتاب الموطأ واقرائه» (١٣) ومحمد بن علي بن سليمان السطي (مات غريقاً سنة ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م) (١٤) ، قيل انه كان في الفقه لا يجارى حفظاً وفهماً وابناء الامام ابا زيد عبدالرحمن وابا موسى عيسى الذين وصفهم ابن خلدون بقوله «هم سباق الحلبة في مجلس السلطان ابي الحسن اصطفاهم لصحبته من بين اهل المغرب»(١٥) ومحمد بن ابراهيم الابلي «المتوفي سنة ٧٥٦هـ/١٣٥٦م» شيخ العلوم العقلية (١٦) ، واحمد الزواوي امام المقرئين بالمغرب (١٧) .

وتجدر الاشارة إلى ان يحيى بن خلدون ذكر بعضهم بصفة «شيخنا» ومنهم ابا عبدالله الابلي الذي ذكره بقوله : «فيما ذكره شيخنا ابو عبدالله الابلي رحمه الله (١٨) اما ترجمته التي وردت في البغية فقد وصفه بأنه «فاق اهل زمانه في العلوم العقلية (١٩)» والفقيه ابا عبدالله محمد بن احمد الشريف الحسني

---

(١١) الرحلة : ٥٠-٥٦ ، وقد ترجم له ابوعبدالله محمد بن محمد بن مريم-البستان في ذكر الاولياء والعلماء بتلمسان ، تحقيق محمد بن ابي شنب (الجزائر : ١٩٠٨) ١٨٤-١٩٠ .

(١٢) الرحلة : ٤٦-٤٧ .

(١٣) الرحلة : ٤٦ ، احمد بن يحيى الونشريسي - وفيات الونشريسي من كتاب الف سنة من الوفيات ، تحقيق محمد حجي (الرباط : ١٩٧٦) ١١٧ ، ابن القاضي-جذوة الاقتباس : ٣٠١/١ ، عبدالرحمن بن زيدان-اعلام الناس بجمال اخبار حاضرة مكناس ، المطبعة المغربية الاهلية (المغرب : ١٩٢٩) ٥٨١/٣-٥٨٢ .

(١٤) الرحلة : ٣٢ : ٣٣ محمد بن مرزوق التلمساني - المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا ابي الحسن ، تحقيق ماريا خيسوس بيغيرا (الجزائر : ١٩٨١) ٢٦١ ، المقري-نفح الطيب : ٢٤٠/٥-٢٤١ .

(١٥) الرحلة : ٢٩-٣٢ ، ابن مريم- البستان : ١٢٣-١٢٦ .

(١٦) الرحلة : ٢١ .

(١٧) الرحلة : ٢٣ .

(١٨) يحيى بن خلدون ، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ، تحقيق الفردبل ، مطبعة بيير مونطانا : الشرقية (الجزائر : ١٩٠٢) ٩/١ وسنرمز له بالبغية لا حقاً .

(١٩) يحيى بن خلدون = ٥٧ وللمزيد عن الابلي ينظر المقلاني -الدر الكامنة في اعيان المائة الثامنة : ٣٧٥/٣ ابن ابراهيم »-الاعلام : ٢٧٣/٣-٢٧٦

(ت ٧٧١هـ/١٣٦٩م) (٢٠) القائل بحقه «شيخنا احد رجال الكمال علماً ودياناً لا يغرب عن علمه فن عقلي الا وقد احاط به» (٢١) .

ويبدو ان الدافع الذي ادى به إلى الاقتصار على ايراد ذكر بعض العلماء دون الاخرين ، يرجع الى ان منهجه يقتضي الاحاطة بالعلماء الذين عاشوا بتلمسان ، واما من كان سواهم من بلاد اخرى فمن غير المعقول ان يأتي على ذكرهم .

على اية حال فقد تلقى دراسته على عدد اخر من العلماء ، ففي مجال اللغة والادب ، درس على يد الشيخ منصور بن علي بن عبدالله الزواوي الذي نعته بـ «الحذق بالفتيا مع الخط الحسن والنظام الرائق والكتابة النبيلة» (٢٢) والفقيه محمد بن ابراهيم البلنيقي الذي ترجم له في مؤلفه، مع ايراد قصيدة له مطلعها :

هل من مجيب، دعوة المستنجد ام من مجير الغريب المفرد (٢٣)

كما تظهر مكانته الادبية الرفيعة من ثنايا الخطاب الذي وجهه ابن الخطيب إلى يحيى بن خلدون والذي يصف براعته بقوله .. «ان البيان يا ال خلدون سكن مثواكم دار خلود وقدح زنداً غير صلود واستأثر في محابركم السيالة وقضب رماحكم الميادة والميالة...» (٢٤) .

---

(٢٠) لديه مؤلفات منها – المفتاح في اصول الفقه ، ابن مريم ، البستان : ١٦٦ ، مخلوف-شجرة النور الزكية في طبقات المالكيه ، ط٢ ، دار الكتاب العربي (بيروت : بلا : ٢١٩) .

(٢١) البغية : ٥٧

(٢٢) البغية : ٧٤ ، وقد اشتهر بعلم الاصول ينظر المقري – ازهار الرياض : ٩/٢ و١٥ وقد ترجم له لسان الدين بن الخطيب الاحاطة في اخبار غرناطة . تحقيق محمد عبدالله عنان ، دار المعارف (القاهرة : ١٩٧٦) ٣/٣٢٤–٣٣٠) .

(٢٣) رفع القصيدة الى الامير ابي حمو موسى سنة ٧٦٧هـ/١٣٦٥م وهو يستصرخه لنصرة بلاد الاندلس بعد الاعتداءات التي شنتها قشتالة على المسلمين في غرناطة للمزيد ينظر البغية : ١٦٧/٢–١٧٠ .

(٢٤) محمد عبدالله عنان-لسان الدين بن الخطيب حياته وتراثه الفكري–مكتبة الخانجي (القاهرة ١٩٦٨) : ١٤٨ .
يقول ابن الخطيب .. (ومن ذلك ماخاطبت به الفقيه ابا زكريا ابن خلدون لما ولي الكتابة عن السلطان ابي حمو موسى بن زيان ، واقترن بذلك نصر وضع غبطته به وقصدت بذلك تنفيذه). ريحانة الكتاب : ١٤٠/٢–١٤٢ .

في دائرة الصراعات السياسية

يظهر دور يحيى بن خلدون في الاحداث السياسية ، منذ مجيء السلطان ابي سالم ابراهيم بن ابي الحسن المريني (٧٦٠–٧٦٢هـ / ١٣٥٨–١٣٦٠م)(٢٥) . اذ عمل عند الاخير كاتباً في ديوان الانشاء المريني (٢٦) بعد ان انتقل الى فاس مع اميره حاكم بجاية الحفصي اثناء حكم السلطان ابي عنان المريني الذي تمكن من ضم بجاية الى دولته سنة (٧٥٣هـ / ١٣٥٢م بطريقة سلمية (٢٧).

وبموت السلطان ابي عنان عادت بجاية الى طاعة الحفصيين الامر الذي دفع بحاكم المغرب الاوسط محمد بن ابي عنان الى اطلاق يد الامير ابي عبدالله الحفصي الحاكم السابق لها وحاجبه يحيى بن خلدون للمطالبة بهـا وتخليصها من سيطرة الامير الحفصي ابي اسحق ابراهيم بن ابي بكر الحفصي، ولم يتمكن ابو عبدالله ان يستردها الا في رمضان سنة (٧٦٥هـ / ١٣٦٣م(٢٨) اذ ترد اشارة في خضم تلك الاحداث الى قيام يحيى بن خلدون بمهمة عاجلة الى الامير ابي حمو حاكم تلمسان (٢٩) .

وتشاء الاقدار ان تتغير الاحوال . وتنشب بين افراد الاسرة الحفصية صراعات جديدة اذ قام ابو العباس الحفصي صاحب قسنطينة سنة (٧٦٧هـ / ١٣٦٥م) . بالسيطرة على بجاية وقتل صاحبها ابي عبدالله . واخضاع يحيى

(٢٥) للمزيد ينظر ابو الوليد اسماعيل / ابن الاحمر – روضة النسرين في دولة بني مرين ، المطبعة الملكية (الرباط : ١٩٦٢) ٣٨–٣٩ .

(٢٦) البغية : ٧٦/٢ ، الفردبل – ابن خلدون : ١٥٦/١ .

(٢٧) ابن خلدون – العبر : ٣٦٦/٦ ، اما الزركشي فيقرر ان بجاية دخلت في طاعة ابي عنان سنة ٧٥٥هـ/١٣٥٤م ، تاريخ الدولتين ، ١٤٩ وللمزيد ينظر ابو العباس احمد بن خالد الناصري–الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى ، تحقيق جعفر ومحمد الناصري (الدار البيضاء : ٥٤–١٩٥٩)٣/١٨٤ .

(٢٨) ابن خلدون – العبر : ٤١٨/٨ ، البغية ١٢٣/٢ .

(٢٩) تمكن الامير ابو حمو موسى الزياني من استعادة حكمه في تلمسان ، ثم عقد صلحاً بعد ذلك مع المرينيين فيما نقل على خلافه القديم مع الحفصيين حكام تونس ، للمزيد ينظر : البغية ١٢٤/٢ .

إبن خلدون تحت سيطرته بعد ان اغراه بالبقاء فاكرمه اول الامر هو واخاه عبدالرحمن ثم انقلب عليهما لوشاية وقعت على عبدالرحمن بن خلدون ثم اعتقال يحيى وسجنه بمدينة بونة فيما هرب اخوه (٣٠).

الا ان اعتقاله لم يدم طويلاً اذ تمكن من الهروب والتوجه الى مدينة بسكره حيث استقر اخوه عبدالرحمن ، وفي بسكره وصل الامير الزياني عمر بن محمد الذي حضر بمهمة اقناع قبائل رياح بالخضوع للامير ابي حمو (٣١) ولما كان يحيى معروفاً بمكانته لديهم فقد ألح عليه السفير عمر بالتوجه معه إلى شيوخهم لغرض اقناعهم ، وفعلا وافق يحيى ونجح في مهمته مع شيوخ رياح وقصدوا تلمسان لتقديم البيعة سنة (٧٦٩هـ/١٣٦٧م) وهناك اصطناه الأمير أبو حمو لمهمة الكتابة إذ يقول .. « ثم اصطفاني لكتابة انشائه ..... وأمرني باستقدام ولدي من بسكره محجولين باحسانه محفوفين ببره وعنايته فكان ذلك أول سعادة أوتيتها وأعظم عناية ربانية رأيتها » (٣٢) .

ثم حدث ان تدهورت العلاقات السياسية من جديد بين المرينيين والزيانيين إذ قام السلطان المريني ابو فارس عبد العزيز (٣٣) . (٧٦٧ – ٧٧٤هـ / ١٣٦٥ – ١٣٧٢م) بشن حملة على الأمير ابي حمو الزياني ، فأخضع تلمسان ودخلها سنة) ٧٧٢هـ / ١٣٧٠م) بينما هرب اميرها باتجاه الصحراء ، أما كاتبه يحيى بن خلدون فقد قبل ان يفارق اميره ، ملتحقاً بخدمة السلطان المريني ابي فارس وولده السعيد بالله (٣٤) من بعده (٣٥) وقد شعر بالخطأ

---

(٣٠) العبر : ٤١٨/٧–٤١٩ .

(٣١) ابو حمو موسى بن يوسف بويع بتلمسان سنة ٧٦٠هـ/١٣٥٨م وقتل سنة ٧٩١هـ/١٣٨٨م وله ٦٨ سنة وقد ذكر له ترجمة طويلة ابن الاحمر ابدى كفادته تعامله على حكام بني عبدالواد ووصفهم بنعوتات لاتتطابق وحقيقتهم ينظر روضة النسرين ٥٤–٥٨ .

(٣٢) البغية : ٢٠٠/٢–٢٠٢ ، العبر : ٤١٩/٧–٤٢١ ، وقد تقدم الحديث عن الخطاب الذي ارسله ابن الخطيب بمناسبة توليته المنصب ، ينظر ريحانة الكتاب ١٤٠/٢–١٤٣ .

(٣٣) هو عبدالعزيز بن ابي الحسن كانت دولته ثمانية اعوام واربعة اشهر للمزيد منه ينظر ابن الاحمر روضة النسرين : ٣٣ .

(٣٤) يكنى ابا زيان ، بويع في ربيع الآخر سنة (٧٧٤هـ/١٣٧٢م) وخلع سنة (٧٧٦هـ/١٣٧٤م) فكانت دولته سنة وثمانية اشهر وبضعة ايام ، ينظر ابن الاحمر روضة النسرين ٣٣–٣٤ .

(٣٥) العبر : ٤٤٣/٧ ، ابراهيم حركات – المغرب عبر التاريخ ، دار الرشاد الحديثة ، الدار البيضاء : ١٩٧٨) ٦٢/٢–٦٤ وتجدر الاشارة الى ان ابن الاحمر قدتجاهل اشتغال يحيى ككاتب لها.

الفادح الذي ارتكبه فيما بعد ، وتبريراً لذلك الموقف يقول : « ومن هنا فارقته – اي ابي حمو – لخيالات سوداوية أعتورتني ونزعات شيطانية تجاذبتني وسوء بخت تتاعس عن ادراك الفخر برحلي وشقاء مكتوب اهوى الى درك الخسارة بي » (٣٦) .

إلا ان مقامه في خدمة السلاطين المرينيين لم يدم طويلاً إذ عاد الأمير أبو حمو إلى تلمسان فيما جاء على حكم المرينيين المستنصر بالله أبو العباس أحمد إبن ابي سالم (٧٧٦ – ٧٨٦هـ / ١٣٧٤ – ١٣٨٤م) . فاستأذنه في العودة إلى تلمسان ، ويبدوان مغادرته لفاس كانت بعد مشاهدته لنكبة الوزير الغرناطي ابن الخطيب اللاجيء في فاس سنة (٧٧٦هـ / ١٣٧٤م) (٣٧) .

ومهما يكن من أمر ، فقد عاد يحيى إلى تلمسان في غرة شهر ربيع الأول سنة (٧٧٦هـ / ١٣٧٤م) وهو يدرك ذنبه ، ملتمساً العفو لنفسه ، فاستجاب له الأمير أبو حمو وعفى عنه واعاده إلى منصبه كما كان كاتباً لسره ، إلا ان الاقدار حالما أوقعته مرة أخرى في شرك الخلافات السياسية ، لكن هذه المرة ، داخل تلمسان عاصمة الزيانيين ، فقد اشتعلت بذور الخلافات والشقاق بين ابناء الأمير ابي حمو ، وقامت منافسة شديدة بين ولديه أبي زيان (٣٨) حاكم وهران وابي تاشفين الذي (٣٩) طمع بحكم وهران لنفسه غير ان

(٣٦) البغية : ٢/٢٣٨ .

(٣٧) استقر ابن الخطيب في فاس بعد أن غادر غرناطة ، مضطراً ،وكان قد اشترط ابن الاحمر على ابي سالم أن يساعده في حكم المغرب لقاء تسليمه ابن الخطيب ولما تولى ولده احمد بن ابي سالم الحكم ، واتخاذه سليمان بن داؤد وزيراً له وهو المعروف بكراهيته لابن الخطيب الذي سبق وان اعترض على تعيين سليمان المذكور شيخاً للغزاة بالاندلس ، الامر الذي اودى بحياته بعد سنة ٧٧٦هـ/١٣٧٤م للمزيد من ذلك ينظر لسان الدين بن الخطيب–معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار ، مقدمة المحقق محمد كمال شبانة ، اللجنة المشتركة لنشر التراث الاسلامي ، مطبعة غرناطة (المحمدية : بلا) ١١/٣٩ .

(٣٨) تولى حكم تلمسان سنة ٧٩٦هـ/١٣٩٤م حتى سنة ٨٠١هـ/١٣٩٩م للمزيد ينظر التنسي–نظم الدر والعقيان : ٢١٠–٢٢٨ .

(٣٩) يلقب بابي تاشفين الثاني حكم دولة بني زيان في تلمسان سنة ٧٩١هـ/١٣٨٩م حتى سنة ٧٩٥هـ/١٣٨٣م للمزيد ينظر التنسي–نظم الدر والعقيان : ١٨٤–٢٠٣ .

والده ماطله بطلبه . فظن ولده أبو تاشفين ان الأمر قد دبر من قبل كاتبه يحيى بن خلدون ، فدبر له مكيدة ذهب ضحيتها ، إذ قام الأمير أبو تاشفين بالايعاز إلى صاحب الشرطة الزياني موسى بن يخلف وامره بقتل يحيى ، وفعلاً قام موسى بن يخلف واعوانه بالتربص بيحيى إذ بينما كان يحيى خارجاً من قصر الأمير ابي حمو في ليلة من ليالي رمضان سنة (٧٨٠هـ / ١٣٧٨م) هاجمه موسى واعوانه واردوه قتيلاً ، وفي اليوم التالي عرف الأمير ان مقتله قد دبر من ولده ، فحاول اسدال الستار على جريمة قتله أو كما قال أخوه عبد الرحمن « اغفى وطوى عليها جوانحه »(٤٠) .

وهكذا انتهت حياته نهاية مأساوية ، واسدل الستار على اخر فصل من حياة المؤرخ يحيى التي كانت ـ رغم قصرها ـ مهمة لما تركه من أثر تاريخي مهم وثّق تلك الحقبة التاريخية المجهولة من حياة المغرب بوجه عام والجزائر بوجه خاص .

كتابه

« بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد »(٤١)..

ان كتاب «بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد وما حازه أبو حمو من الشرف الشامخ الأطواد » كتاب يقع في جزأين(٤٢)لم يخصصه المؤلف لتاريخ الملوك من بني زيان فحسب بل جاء حافلاً وثرياً، عالج جوانب كثيرة من تاريخ الدولة الزيانية ، إذا فصحت مقدمته عن الدوافع في أسباب تأليفه للامير أبي حمو إذ

---

(٤٠) العبر : ٧/١٤٠ .

(٤١) ان اول مخطوطة عثر عليها في الجزائر كانت سنة ١٨٣٩ اكتشفها المستشرق برجيس.
Yahiia Ibn Khldoun, Histoire des Beni ABD EL-WAI 'Editee dapres cing Manuscrits Arabes, Traduite en Franscais et annotee par ALFRED BEL, Alger Ed pierre Fontana, p. 1903 p.10.

(٤٢) طبع اول مرة بمطبعة موفقانا في جزئين الاول سنة ١٩٠٣ ومعه ترجمة فرنسية بقلم الفرد بل والثاني سنة ١٩١٠ ، وللكتاب طبعة جديدة ظهر منها الجزء الاول بتحقيق وتقديم الدكتور عبد الحميد حاجيات حيث صدر عن المكتبة الوطنية بالجزائر سنة ١٩٨٠ في حجم متوسط يشتمل على ٣٢٦ من تقديماً ونصاً وفهارس مع تقديم بالفرنسية غير مترجم ينظر محمد المنوني، المصادر العربية لتاريخ المغرب.: منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية (الرباط : ١٩٨٣) ١/١٠١-١٠٢ وتجدر الاشارة الى ان الكتاب نسب اول الامر الى عبدالرحمن ثم صحح ذلك المستشرق دوسلان ينظر المغربي ـ بغية الرواد - مجلة المجمع العلمي العربي (دمشق ١٩٢٩)م ٩ ص٣١٣ .

يقول : « تخليداً ما لدولته الكريمة من فعال وبأس ونوال ، واحاديث صحاح للفخر .. وما جمعته سيرته الكريمة من حرب وسلم .. وتدوين ما اشتملت عليه ايامه من اخلاق وجدة وايمان وردة وفرج من بعد شدة ليكون لذلك اسوة في الفخر اللباب وذكرى لاولي الالباب(٤٣) .

اما اقسام الكتاب فقد اشار المؤلف إلى انه رتبه على ثلاثة اقسام وهي كما يأتي : —

القسم الأول « في تعريف بكنه قبيل عبد الواد واوليته ، وفيه ثلاثة أبواب :

الباب الاول : - في ذكر محل اعتماره من الارض ويشتمل على ثلاثة فصول الاول في اسم المكان ووصفه والثاني في تعديد من انجبه واستقربه من الصالحين والعلماء وغيرهم ، والثالث في تملكه من لدن الفتح الاسلامي.

أما الباب الثاني : فقد جاء في «التعريف بجنس القبيل وفضله ، ويشتمل على فصلين ، الاول في ذكر البربر ،ومنتهى زناته فيهم والثاني في ذكر شعب بني عبدالواد وبطونهم ، وجاء الباب الثالث في «ذكر اوليتهم وترحيل ايامهم ويشتمل على ثلاثة فصول الاول في ابتداء امرهم والثاني في انتهاء الملك اليهم والثالث فيمن ولي غير مستمد منهم» .

اما القسم الثاني فقد خصصه في «ذكر الملك الاول من بني عبد الواد وفيه ثلاث ابواب ، الباب الاول في ذكر دولة يغمراسن بن زيان (٤٤) ودولة بني عثمان من بعده ، والباب الثاني في احياء الدولة بعد وفاتها والباب الثالث في دولة اولاد عبدالرحمن بن يحيى بن يغمراسن .

---

(٤٣) البغية : ١/٥—٦ .

(٤٤) يغمراسن بن زيان هو مؤسس الدولة الزيانية ، وحكم المغرب الاوسط بعد الموحدين اذ انفصل عنهم واتخذ تلمسان عاصمة له للمدة من ٦٣٣-٨٨١هـ/ ١٢٣٥م-١٢٨٢ للمزيد عنه ينظر ابن خلدون-العبر ٧/٢٠١-٢٠٣ ، حركات — المغرب عبر التاريخ ٢/٢٦ ، شارل اندريا جوليان — تاريخ افريقيا الشمالية ، تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامه ، الدار التونسية للنشر(تونس : ١٩٨٥)٢/٢٠٢-٢٠٤ ، مزاحم علاوي محمد —يغمراسن ابن زيان ودوره في قيام الدولة الزيانية ،مجلة التربية والعلم ،كلية التربية (الموصل ١٩٨٨) العدد السادس : ٢٤٦-٢٤٧ .

وجاء القسم الثالث وقد خصصه لما «حازه امير المؤمنين مولانا — ابو حمو من الشرف الشامخ الاطواد» وفيه ثلاثة ابواب ، الباب الاول في ذكر سجاياه الكريمة وسيرته الحميدة ؛ والباب الثاني في ذكر ماحوته دولته الكريمة من حال وترحال وابرام» (٤٥) .

واذا ماانتقلنا الى موارد الكتاب ، فنجد ان يحيى بن خلدون ، اعتمد الكثير من الاشكال فعلى صعيد الكتب التاريخية ، فالغالب عليه انه يكتفي مرة بذكر الكتاب دون المؤلف ، ومستخدماً عبارات مقتضبة كقوله قال صاحب الاحكام في حديث المغرب الاقصى ؛ وصاحب الجغرافية (٤٦) بينما نجده في مواضع اخرى يذكر المؤلف، دون ان يسمي كتابه ، فيشير الى المسعودي والطبري والسهيلي والصولي وابن قتيبة (٤٧) وفي حالة ثالثة يعتمد بعض الالقاب لمؤلفين دون التصريح باسمهم أو مؤلفاتهم ، وخاصة وان بعضها شائعة مثل «قال الانباري المكناسي فيه (٤٨)» ...

كما اعتمد على روايات شفاهية معاصرة له اوسابقة عليه كقوله «حدثني الثقات» (٤٩) او «روى ابو الحسن عن ابيه» (٥٠) أو قيل انه وقيل انه (٥١) أو «واخبرني الشيخ أبوا لحسن الميورقي من اعيان المدينة في شأن البلاد» (٥٢) .

يضاف الى ذلك فقد جاء مؤلف يحيى بن خلدون حافلاً بالنصوص الشعرية لعدد من الشعراء العرب عبر مختلف العصور منها ابيات المعري والسموءال إبن عاديا(٥٣) . وقصائد الشعراء عاصروه من امثال لسان الدين بن الخطيب(٥٤)

---

(٤٥) البغية : ١/٥-٦ .
(٤٦) البغية : ١/٨و٢١
(٤٧) البغية : ١/٩٠-٩١ .
(٤٨) البغية : ١/٢٦
(٤٩) البغية : ١/٢٤٧ .
(٥٠) البغية : ١/٢٦ .
(٥١) البغية : ١/٣٣
(٥٢) البغية : ١/٢٠
(٥٣) البغية : ٢/١٩٩ و ٢/٢٦١-٢٦٣ .
(٥٤) منها على سبيل المثال : ارسال ابن الخطيب قصيدتين الى ابي حمو بعد ان اشتدت مخافته من بني مرين ، البغية : ٢/٢٨٧-٢٩٣ ، ٢/٣٠٠-٣٠٧ .

ومحمد بن ابي جمعة التلالسي وغيرهم (٥٥) .

وعلاوة على ذلك فان تعامل يحيى بن خلدون مع الروايات التي يوظفها في مؤلفه ، تعتمد المقارنة مع نظيراتها ، فهو في الموضع الذي يتحدث فيه عن نزوح البربر الي المغرب ، يحدد ماجاء على لسان الطبري فيقول وقال الطبري ثم يقول «قال غيره» (٥٦) دون ان يلتزم احداها او يسلم بها.

اما اسلوب يحيى بن خلدون ، فلا بد ان نعرف ان الثقافة التي تيسرت له قد اعطته المكانة التي يستحقها ، فهو كاتب اشتغل لدى سائر الامراء الذين عاصروه ، وثانياً فان نثره وشعره يشهد بمكانته الادبية فهذا ابن الاحمر يقول في حقه...«وله معرفة بالتاريخ القديم منه والحديث ، واقتدار على سبك الكلام الرائق ، وحوك النظام الفائق...»(٥٧) وعلى هذا الاساس بان علوه في صياغة عباراته ، فهو يستخدم مرة اسلوباً منمقاً مسجوعاً وخاصة في ديباجة كل قسم او فصل أو باب ، وهو منهج اعتمده كتاب تلك العصور ، وغرضه في ذلك اظهار مهارته في الصياغات اللفظية وان كان ذلك لايخلو من زخرفة لفظية اوحشو زائد فمي وصفه ليغمراسن بن زيان يقول...«فارع الثنية وعاطف الحنية المستأثر دون الملوك بالخلال السنية عظم والريع والريعان مقيم حفلي الطعام والطعان ، خليفة الله المرتضى وسيفه المنتضى ووعد امينه الصادق المقتضى منير الاحلال وناظم الاسلاك وملك الشرفاء وشريف الاملاك» (٥٨) .

ثم ينتقل بعد تلك المقدمات مستخدماً اسلوباً يتسم بالبساطة وحسن اختيار الالفاظ والعناية بصياغتها ، فهو يقول «وسئل منه القوم — أي يغمراسن بن زيان . بالشرف واثبات نسبه اليه فمال ان كان المراد شرف الدنيا فهو مانحن فيه وان كان القصد شرف الاخرى فهو عند الله سبحانه»(٥٩) .

ويجيء كتابه شاهداً على قدرته الادبية ان كان في تنوع البحور التي يستخدمها

(٥٥) البغية : ٢/٦٥-٧٥ ، ٤٤-٤٩ .
(٥٦) البغية : ١/٩٢ .
(٥٧) مستودع العلاقة ومستبدع العلامة : ٦٥ .
(٥٨) البغية : ١/١٠٩ .
(٥٩) البغية : ١/١١١ .

كاستخدامه الطويل في قصيدة ليلة المولد لسنة (٧٧١هـ/١٣٦٩م)(٦٠) او بحر المتدارك في ليلة اخرى من ليالي المولد(٦١) . كما اظهر براعته في محاكاة بعض الشعراء في قصائدهم فهو يحاكي قصيدة لابن الخطيب ، قد قالها في احتفالات المولد لسنة (٧٧٨هـ/١٣٧٦) (٦٢) ، واخيراً فان شعره الذي كتبه على لسان الجارية في وصف المنجانة – الساعة – بتكليف من الامير ابي حمو في ليلة المولد (٦٣) تكفي لاظهار ماامتلكه من موهبة ادبية .

اما قيمة اثره التاريخي فتأتي من خلال تركيزه على بني عبد الواد في تلمسان منذ قيامهم وحتى سنة ٧٧٧هـ/١٣٧٥م ، اي قبل وفاته بثلاث سنوات ، وقد جمع فيه من المعلومات والمنجزات والحقائق التي تؤشر حياة تلك الدولة على المستوى الداخلي والخارجي .

ففي ميدان الحياة العلمية والثقافية لتلمسان ، ترجم للعلماء الذين عاشوا في تلمسان او ولدوا بها ، فبلغ عدد تراجم العلماء «١٠٨» (٦٤) ترجمة مبيناً ذلك بقوله «هذا ماامكن الالمام به من اسماء النبوم سوى من انجبته من الطلبة العراف والامناء الثقات والصناع الحذاق في كل صنف (٦٥) .

ولم يكتف بذكر العلماء فحسب بل انه كان يتتبع نبوغ العلماء من الاسرة الواحدة ، الامر الذي اعطانا انطباعاً عن البيوتات العلمية في تلمسان ، فعلى سبيل المثال لا الحصر ، ذكر لنا ترجمة الشيخ محمد بن ابي بكر بن مرزوق

(٦٠) البغية : ٢/٢٣٠–٢٣٤ ، وينظر ايضاً ابن الخطيب – ريحانة الكتاب : ٢/٢٢٤
(٦١) البغية : ٢/٤١ .
(٦٢) ومطلع القصيدة :
ماعلى الصب في الهوى من جنـــــــــاح ان يرى خلف عبرة وافتضـــاح
للمزيد ينظر المقرى، – ازهار الرياض : ١/٢٣٩–٢٤٢ وتجدر الاشارة الى ان تلك القصيدة لم ترد في البغية .
(٦٣) وقد ذكر المقامات الشعرية في كل ساعة للمزيد ينظر البغية : ٢/٢١٨–٢٢٢ المقرى، ازهار الرياض . ١/٢٤٦–٢٤٧ .
(٦٤) البغية : ١/٢٢–٧٥ .
(٦٥) البغية : ١/٧٥

«ت ٦٨١هـ /١٢٨٢م»(٦٦) ،ثم اتبعه بولده ابي العباس احمد (ت٧٤١هـ/ ١٣٤١م) (٦٧)، ثم ولده من بعده الفقيه محمد المكنى بابي عبدالله المولود سنة (٧١١هـ/١٣١١م)والذي اشار في ترجمته الى اشتغاله في البلاط المريني (٦٨) وهكذا يتكرر الامر في اسر اخرى غير التي ذكرنا (٦٩) ، بل يعمد احياناً الى ذكر الشيخ وتلميذه من بعده (٧٠) .

ومن المظاهر الثقافية والدينية التي اغناها ، وابرز معالمها ، احتفـالات تلمسان في عهدهم بالمولد النبوي الشريف في كل سنة (٧١). والتقاليد المتبعة فيه ، والقصائد المولدية التي القيت في احتفالات عدد من السنوات على عهد الأمير ابي حمو ، ذاكراً اسماء شعرائها ، مع نماذج من قصائد الأمير ابي حمو موسى الثاني (٧٢) .

وإذا انتقلنا إلى ميدان آخر متمثلاً بنظام الدولة فاننا سنجد يحيى بن خلدون قد احاطنا بمعلومات وافية عن الوظائف الادارية في دولتهم واسماء اصحابها عبر عهود الأمراء الزيانيين منذ عهد مؤسسها يغمراسن بن زيان وحتى عهـد الأمير ابي حمو (٧٣).

أما في ميدان النشاط السياسي والعسكري للدولة ، فلقد تضمن كتابه أوجهاً متنوعة لطبيعة الحياة السياسية والعسكرية الزيانية الداخلية والخارجية ، فهـو يستعرض في كل عهد أمير علاقاته الحربية والخارجية مع أمراء الدول

(٦٦) ولد ومات في تلمسان (٦٢٩-٦٨١/١٢٣١-١٢٨٢م) فقيه ومحدث وصوفي للمزيد ينظر ابن مرزوق – المسند الصحيح .: ٧١ .

(٦٧) توفي في مكة ، وقد تولى مهمة سفير في الدولة المرينية للمزيد ينظر التلمساني ــ المسند ١٨ – ١٩ ، ٣٢٢ .

(٦٨) يلقب بشمس الدين ويعرف بالخطيب ، مات في القاهرة سنة ٧٨١هـ/١٣٧٦م وهو ــ المسند الصحيح للمزيد عنه ينظر ، الرحلة : ٥٠–٥٦ ، ابن مريم–البستان: ١٨٤ محمد بن شقرون–من مظاهر وحدة الثقافة بين دول المغرب العربي ، الخطيب ابن مرزوق مجلـة مناهل ، عدد ٢ (الرباط : ١٩٧٥) ١٢٨–١٤٠ .

(٦٩) البغية : ١/ ٤٨ – ٥٠ ، ٥١–٥٤

(٧٠) البغية : ١/٥٨–٥٩ .

(٧١) وعن احتفالاتهم ينظر المقرى– نفح الطيب : ١٩/٤ ، ازهار الرياض : ٢٤٢/١

(٧٢) ينظر على سبيل المثال لا الحصر : البغية : ٣٠/٢، ٣٦ ، ٤١–٤٩ ، ٦٥–٧٥

(٧٣) البغية : ١١١/١ ، ١١٨ ، ١٢٢ ، ١٢٧ ، ١٣٣ ، ١٥٠ ، ٣٨/٢ .

المجاورة ،(٧٤) كما أوضح طبيعة علاقات الدولة الزيانية مع القبائل المغربية المستوطنة في صحاري الجزائر واثارها على صعيد الحياة السياسية ، كما حوى عدداً من الوثائق التي أرسلها امراء غرناطة من انشاء وزيرهم لسان الدين بن الخطيب سنة (٧٦٧هـ / ١٣٦٥ م) بالاضافة إلي الهدايا المتبادلة بين غرناطة وتلمسان (٧٦) .

وتتضح موضوعيته في توثيق الحقائق التاريخية من خلال ابراز علاقة الزيانيين مع جيرانهم المرينيين حكام فاس ، إذ ان الدولة المرينية تمكنت من تحقيق انتصارات عسكرية كبيرة عليهم ، بل وقدرة المرينيين في السيطرة على تلمسان وضمها لنفوذهم (٧٧) وهنا لابد ان ننوه إلي الفارق الكبير بينه وبين إبن الأحمر الذي أرخ للمرينيين وعاش في دولتهم ، فانعكست أهواؤه في تقييم خصوم الدولة المرينية من خلال استخدامه عبارات نابية مجافية للحقيقة عن حكام تلمسان وبوجه خاص مؤسس دولة بني عبد الواد الأمير يغمراسن إبن زيان (٧٨) .

بقي ان نشير إلى ان مادته التاريخية كانت مثار اهتمام وعناية من لدن المؤرخين الذين جاءوا بعده ، فالتنسي قد أكثر من الاعتماد عليه وبوجه خاص في ذكر نسبهم وغزوات يغمراسن بن زيان محيلاً تلك الروايات إلي يحيى إبن خلدون (٧٩) ، بينما في مواضع أخرى ، نقل منه نصوصاً بصورة حرفية

(٧٤) البغية : ٢/٢٣٦-٢٣٨ ، ٢٧٦ ، وعن اخبارهم مع الدولة المرينية ينظر علي بن ابي زرع - الانيس المطرب بروض القرطاس ، دار المنصور (الرباط : ١٩٧٣) ٣١٢ .

(٧٥) ركز في الباب الثالث على ذلك بشكل تفصيلي من سنة ٧٦٠هـ/١٣٥٨م وحتى ٧٧٦هـ-١٣٧٤م للمزيد ينظر البغية : ٢/١٧-٢٩٩ .

(٧٦) البغية : ٢/١٧٤-١٨١ ، ٢/٢٧٦ .

(٧٧) البغية : ١/١١٦-١٢١ ، ٢/٢٣٧-٢٣٨ .

(٧٨) وفي معرض حديثه عن يغمراسن بن زيان قال : «فأواهم يغمور الذي في قيد من خوف مرين يغمور .» روضة النسرين : ٤٥ ، هذا عكس الواقع اذ يصفه عبدالرحمن بن خلدون بقوله «كان يغمراسن من اشد هذا الحي بأساً ، واعظمهم في النفوس مهابة وجلالة واعرفهم بمصالح قبيلة ، واقواهم كاهلا على حمل الملك واضطلاعاً بالتسيير والسياسة ..» العبر ٧/١٦٣ .

(٧٩) اكثر التنسي من العودة الى يحيى بن خلدون في الباب السابع الخاص بتاريخ بني زيان . التنسي : نظم الدر والعقيان : ١١٠-١٢٨ .

دون ان يذكره منها وصفه للمنجانة — الساعة — في تلمسان والخاصة باحتفالات المولد النبوي الشريف (٨٠) وزاد على ذلك بان نقل نفس النص مع تغييرات طفيفة لا تمس جوهر المعنى والشكل ، ووضع النص في مؤلفه الاخر راح الأرواح » (٨١) .

وأخيراً فان المعنيين بدراسة الدولة الزيانية يدركون أهمية يحيى بن خلدون مؤرخاً لها في القرنين السابع الهجري وحتى وفاته في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري ، وان معاصرته لكثير من الأحداث جعلته شاهداً على عصره أو قريباً منه وبالتالي فان الاختلاف ببعض الحقائق تجعل من المؤرخين القدامى والمحدثين الوثوق معاً بقول المؤرخ يحيى عن تلك الفترة بوصفه مؤرخها الاساسي الذي لا استغناء عن ما جاء باثره التاريخي المهم (٨٢) .

---

(٨٠) قارن بين البغية : ٤٠/٢ ، التنسي — نظم الدر والعقيان : ١٦٢—١٦٣ .

(٨١) المقري : ازهار الرياض : ٢٤٣/١ ، نفح الطيب : ٥١٣/٦—٥١٥ : ونجدر الى ان التنسي وهو مؤرخ معروف ، الف عدداً من الكتب منها راح الأرواح فيما قاله ابو حمو من الشعر وقيل فيه من الامداح ، والجواب المطول في قضية يهودته والطراز في شرح ضبط الخراز للمزيد ينظر التنسي — نظم الدر والعقيان ، مقدمة المحقق— ٩—٣٤ .

(٨٢) قارن على سبيل المثال موضوع بيعة يغمراسن اذ يحددها يحيى بن خلدون سنة ١٢٣٥م ، ويؤيده في ذلك اخوه عبدالرحمن بينما يقرر التنسي ان البيعة تمت سنة ٦٣٧/١٢٣٩م ويأتي ابن الاحمر ليقدم سنة ٦٣١/١٢٣٣م ، ينظر كل من البغية : ٧/١ ، العبر : ١٦٢/٧ ، نظم الدر والعقيان : ١١١